

أصالة الفلسفة الإسلامية وامتداداتها

الدرس
5

أهداف الدرس

1. أن أتعرف معالم أصالة الفلسفة الإسلامية؛
2. أن أثبت امتداداتها ومزاياها؛
3. أن أتمثل أصالتها وامتدادها في فهمي وتفكيري .

تمهيد

سبق أن الفلسفة الإسلامية أصيلة النشأة والتطور ، وأن مدارسها إسلامية المنبت والانتماء ، والموضوع والقضايا ، والمنهج والغاية؛ فهي ذات مرجعية إسلامية طبيعةً وحضوراً ، إنتاجاً وفاعليةً ، منطلقةً من بصائر الوحي وهداياته ، وروح الحضارة الإسلامية وخصائصها ، منفتحةً على المعرفة الإنسانية ، مستفيدةً من النافع منها ، وليس يضير الفلسفة الإسلامية أخذها من غيرها .
فما معالم أصالة الفلسفة الإسلامية؟ وما امتداداتها في التاريخ؟

نص الانطلاق

1. قال الكندي: «وينبغي أن لا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى ، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأأم المباينة لنا ، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق ، وليس ينبغي بخس الحق ، ولا تصغير بقائله ولا بالآتي به ، ولا أحد بخس بالحق ، بل كلُّ يُشرِّفه الحق» . [رسائل الكندي 103/1]

2. قال مصطفى عبد الرازق: «تلاشى القول بأن الفلسفة العربية أو الإسلامية ليست إلا صورة مشوهة من مذهب أرسطو ومفسريه ، أو كاد أن يتلاشى ، وأصبح في حكم المسلم به أن للفلسفة الإسلامية كيانا خاصا ، يميزها عن مذهب أرسطو ومذاهب مفسريه» .

[تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص 26]

الفهم

الشرح:

- **المباينة لنا:** المخالفة لنا في الدين .
 - **الحق:** الشي الثابت الصحيح الذي لا مسوغ لإنكاره .
 - **الملة:** المذهب والطريقة .
- استخلاص المضامين:
- أستخلص من النصين أصالة الفلسفة الإسلامية وامتداداتها.

التحليل

نتناول هذا الدرس من خلال المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى: معالم أصالة الفلسفة الإسلامية

لا يجادل أحد في أن المسلمين قد اقتبسوا من غيرهم علوما جمة، ومعارف وأفكارا كثيرة، فليس الاقتباس مما عند الآخر عيبا في حد ذاته، ولا تقليدا ممقوتا، أو منقصة، بل هو وسيلة ممهّدة للإبداع والتجديد، وهذا صنيع منهجي، مارسه المسلمون منذ بزوغ فجرهم؛ فقد اعترفوا بالفضل لأهله، وعزّوا الأفكار والأقوال لأصحابها، صونا للأمانة العلمية، والبحث العلمي الرصين، يقول الكندي: «وينبغي أن لا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغي بخس الحق، ولا تصغير بقائله ولا بالآتي به، ولا أحد بخس بالحق، بل كل يُشرفه الحق». [رسائل الكندي 1/103]

إن المتأمل في جهود المسلمين الفكرية لا يسعه إلا أن يقر بفضلهم، فيما زادوا وأبدعوا وأعطوا وأثمروا، يقول أحد المستشرقين «كلما ازددنا معرفة بتاريخ البشر، ازددنا إدراكا بأنه لا يوجد خلق ذاتي-إنتاج فريد- في التاريخ، وإنما هو إعطاء أشكال جديدة لمواد كانت موجودة من قبل، والفلسفة الإسلامية مثال ممتع لهذه العملية التي يقوم عليها استمرار الحضارة البشرية».

[الفلسفة الإسلامية ومركزها في التفكير الإنساني، ريشار فاتزر، ص34]

فالحضارة الإسلامية لها وزنها وقيمتها وتميزها، ومن الإنصاف أن نذكر بأن المسلمين قد اقتبسوا من اليونان انتقاء لما فيه نفع دنيوي؛ فقد أهملوا الآداب اليونانية لاعتقادهم بعبقورية لسانهم، ولم يتأثروا بالأساطير التي ملأت كتب اليونان؛ لأنها منافية لمبدأ التوحيد، الذي جاءت به العقيدة

الإسلامية، ولم يذعنوا للنتائج التي انتهى إليها الفلاسفة، بما فيهم «أرسطو وأفلاطون» أحيانا، إذا كانت هذه النتائج لا تتفق مع المنهج الإسلامي فيما يخص مبدأ التوحيد، يقول مصطفى عبد الرازق: «تلاشى القول بأن الفلسفة العربية أو الإسلامية، ليست إلا صورة مشوهة من مذهب أرسطو ومفسريه، أو كاد أن يتلاشى، وأصبح في حكم المسلم به أن للفلسفة الإسلامية كيانا خاصا، يميزها عن مذهب أرسطو ومذاهب مفسريه». [تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص 26]

إن الفلسفة اليونانية نشأت في بيئة اليونان، ولها مرجعيتها وأعلامها وقضاياها، بينما الفلسفة الإسلامية لها أعلامها المؤسسون لها، ومرجعيتها الذاتية، وقضاياها الإسلامية المنسجمة مع الدين الإسلامي الحنيف، من حيث فطريته، وحاكميته، يقول الله تعالى: ﴿قَآفِرْمٌ وَّجَافِلٌ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ يَكْهَرُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۖ فَبَهِرَ النَّاسَ عَلَيْهِمْ آيَاتُ تَبْدِيلِ الْخُلُقِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفِيمًا ۚ وَلَآ يَكْرَهُ النَّاسُ لَآ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم 30]، ورؤيته لأصل الكون ونشأته، ومبدئه ومعاده، والفاعل المختار لذلك كله هو الله الواحد في الخلق والتدبير، يقول تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۖ وَعِنْدَآ إِلَيْنَا إِلَآ نَاكُتًا ۖ بَلِ عِلْمُ رَبِّكَ إِلَآ نَاقُتٌ﴾ [الأنبياء 104] قال الإمام الزمخشري: «والمعنى: نعيد أول الخلق كما بدأناه، تشبيها للإعادة بالبده في تناول القدرة لهما على السواء، فإن قلت: وما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه؟ قلت: أوله إيجاده عن العدم، فكما أوجده أولا عن عدم، يعيده ثانياً عن عدم». [الكشاف 137/3].

فقد انطلق المسلمون في تفكيرهم وفلسفتهم عن الكون والإنسان من هذه الرؤية القرآنية فكانت لهم بذلك فلسفتهم المعبرة عن عقيدتهم ومنهج حياتهم، وقد ذكر مصطفى عبد الرازق: «أنه كان لدى المسلمين تفكير خالص صدروا فيه عن ذاتهم، وتفكير تنسيقي كان لهم فيه أيضا حظ من الابتكار، ويعيننا كل العناية من هذه الرؤية أنها وجهت أنظار الباحثين الخُص إلى ناحية جديدة في الفكر الإسلامي اعتبرها بعض الباحثين فيما بعد الناحية المعبرة عن الحضارة الإسلامية كلها، والتي يمكن أن يستمد منها الطابع الأساس المميز للحضارة الإسلامية». [تمهيد في تاريخ الفلسفة، ص 38].

فالطابع المميز لأصالة الفلسفة الإسلامية يكمن في علم التوحيد القائم على النصوص النقلية، المعززة بالحجج العقلية البرهانية في تثبيت أصول الإيمان والرد على الشبه ومستحدثات الأمور نسفا ودحضا وتفنيدا، وفي علم أصول الفقه الإسلامي في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، الذي قام عليه صياغة هذا الفن وفرسانه، استنادا إلى أصح المناهج، وأدق القواعد، وفي صناعة الفقه؛ إذ هو ملكة يقتدر بها الفقيه على التعليل والقياس والاستنباط تحقيقا لمقاصد الشرع في وضع الشريعة، يقول الفارابي: «صناعة الفقه هي التي بها يقتدر الإنسان على أن يستنبط تقدير شيء مما لم يصرح واضع الشريعة بتحديدده على الأشياء التي صرح فيها بالتحديد والتقدير، وأن

يتحرى تصحيح ذلك على حسب غرض واضع الشريعة بالملة، التي شرعها في الأمة التي لها شرع». [إحصاء العلوم، ص 130-131].

وتأسيسا على ما سبق يمكن القول إن الفلسفة الإسلامية لم تكن مجرد صدى للفلسفات السابقة، بل كانت مشروعا فكريا إسلاميا أصيلا، له ما يبرر أصالته وحضوره المميز، إنتاجا وفعلا وأثرا، نبتت في تربة إسلامية أصيلة، وانطلقت من حاجة ذاتية، وأينعت في جنبات تاريخها الحضاري المديد، ثم تفاعلت مع التراث بمختلف أنظمتها وأنساقه وأنماط تفكيره، وأضافت إليه ووطورت مضامينه ومحتوياته في نطاق المنظومة الإسلامية المتكاملة، حول موضوع الألوهية، والنبوة والمعاد، والإنسان، والكون، وامتد تأثيرها ليشمل مختلف جوانب الفكر والثقافة والإبداع في الحضارة الإنسانية.

المسألة الثانية: امتدادات الفلسفة الإسلامية

قسم المؤرخون العلوم التي عرفها المسلمون إلى نوعين: علوم إسلامية أصيلة نبتت في التربة الإسلامية، وأينعت ثمرتها وآتت أكلها، وعلوم منقولة دخيلة، جاءت وليدة حركة الترجمة، والتأثير والتأثر، والتفاعل والاحتكاك، وهذا التقسيم لا يخلو من محاذير ومزالق، ذلك أنه يجزئ وحدة المعرفة، ويضع بين أنواعها جسورا فاصلة حدث بينها تفاعل في الواقع وتكامل وتبادل في التأثير المتبادل. والواقع أن العلوم الإنسانية تتكامل فيما بينها؛ فالتى أخذها العرب من غيرهم أثرت في نشاطهم الفكري من جهة، وتأثرت أيضا بإشعاعات هذا الفكر الذي اغتنى في الأصل بعقيدة الإسلام وشريعته من جهة أخرى، وواصلت هذه الفلسفة حضورها وتميزها وخصوصيتها في شتى العلوم وأضرب المعارف، مرجعا ووظيفة ومقصدا.

وقد امتد نشاط الفعل الفلسفي الإسلامي لمختلف العلوم، والمعارف النقلية: الحامية للذات والمحافظة على الهوية والشخصية الإسلامية، والعقلية: الشاحذة للأذهان، والصاقلة للأفكار، المفتقة للملكات؛ ومن امتدادات الفلسفة الإسلامية ما ذكره الفارابي في كتاب «إحصاء العلوم» وجعلها كما قال: «ونجمه في خمسة فصول: الأول في علم اللسان وأجزائه، والثاني في المنطق وأجزائه، والثالث في علوم التعاليم، وهي: العدد، والهندسة، وعلم المناظر، وعلم النجوم التعليمي، وعلم الموسيقى، والأثقال، والرابع في العلم الطبيعي (الهيولى) وأجزائه، وفي العلم الإلهي وأجزائه، والخامس في العلم المدني وأجزائه، وفي علم الفقه، وعلم الكلام». [إحصاء العلوم، ص 53] وقد بين الإمام الفارابي فائدة كتابه فقال: «ويُنتفع به في تكشيف من ادعى البصر بعلم من العلوم ولم يكن كذلك، فإنه إذا طوّل بالإخبار عن جملة ما فيه وبإحصاء أجزائه، ويجمل ما في كل جزء منه فلم يضطلع به تبين كذب دعواه، وتكشف تمويهه». [إحصاء العلوم، ص 54-55]

إن الفكر الإسلامي وفلسفته الأصيلة عرف ثراء وغنى وامتدادا في الزمان والمكان والمجال، مستبصرًا من مصادره الأصيلة: القرآن المجيد، والسنة النبوية الهادية، والاجتهاد الوظيفي المسؤول؛ فهو فكر يعي كنه ذاته في التوصيف والتوظيف، ويفقه ثقافة الآخر وخصوصيته ومرجعياته، فكر له خصوصيته ومرجعياته ومقاصده، وسياقه التاريخي الذي يكتنف مراحل الحضارة الإسلامية الممتدة نحو بناء تاريخها المجيد، والحفاظ على هويتها الأصيلة، ونقاوة مصادرها الصحيحة، يقول إبراهيم مذكور- هو من أشد المدافعين عن أصالة الفلسفة الإسلامية-: «هناك فلسفة إسلامية امتازت بموضوعاتها وبحوثها، بمعضلاتها ومسائلها، وبما قدمت لهذه وتلك من حلول، تحاول التوفيق بين الوحي والعقل، والعقيدة والحكمة، والدين والفلسفة، وتُبين للناس أن الوحي لا يناقض العقل، وأن العقيدة إذا استنارت بضوء الحكمة تمكنت من النفس، وثبتت أمام الخصوم، وأن الدين إذا تأخى مع الفلسفة أصبح فلسفيًا، كما تصبح الفلسفة دينية، فالفلسفة الإسلامية وليدة البيئة التي نشأت فيها والظروف التي أحاطت بها، وهي كما يبدو فلسفة دينية روحية». [في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه ص 23-24 بتصرف]

التقويم

1. أحدد أصالة الفلسفة الإسلامية وخصوصيتها؛
2. أوضح امتدادات الفلسفة الإسلامية ومميزاتها في التأسيس والبناء.

الاستثمار

يقول إبراهيم مذكور: «لقد وضعت الفلسفة الإسلامية موضع الشك زمنًا، فأنكرها قوم وسلم بها آخرون، وكانت موجة الشك فيها طاغية طوال القرن التاسع عشر، فظن- في تحامل ظاهر- أن تعاليم الإسلام تتنافى مع البحث الحر والنظر الطليق، وأنها تبعا لهذا لم تأخذ بيد العلم ولم تنهض بالفلسفة...». [في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، ص: 15]

أحل وأناقش هذا الكلام.

الإعداد القبلي

أبرز علاقة الحكمة والشريعة، انطلاقًا من مشروعية النظر الفلسفي عند أبي الوليد بن رشد.